الفيزياء ووجود الخالق

د. دحام اسماعيل العاني

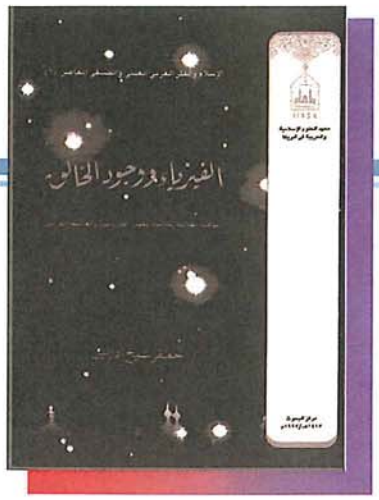

الفيزياء ووجود الخالق كتاب من تأليف الدكتور جعفر شيخ إدريس ، وهو الأول من سلسلة كتب « الاسلام والفكر الغربي العلمي والفلسفي المعاصر» التي باشر معهد العلوم الإسلامية والعربية في امريكا بإصدارها اعتباراً من ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

تهدف هذه السلسلة إلى الاسهام في الدلالة على إسلامية حقائق العلم ، ووحدانية الله ، ومن ثم فهي تساعد طلاب المعرفة للوصول إلى الحقيقة التي ارشد الله عباده إليها، لتفعيل تفكيرهم لبلوغها بالبراهين العقلية والادلة الحسية . يضم الكتاب بين دفتيه ١٦٤ صفحة من القطع الصغير موزعة على سبعة فصول والمقدمات والمراجع .

يتصدر الكتاب تقديم مدير معهد العلوم الاسلامية والعربية في امريكا ، فيشير في هذا التقديم إلى أن من مرامي إصدار هذه السلسلة من الكتب وهذا الكتاب الذي نحن بصدده هو تحقيق هدف التواصل والتبادل المثمر مع الحضارة الغربية ومنجزاتها .

أما المؤلف فيشير في مقدمته للكتاب إلى أنه أراد مناقشة الحجج التي يتعلل بها الملحدون من الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق، فالكاتب لايناقش الحقائق ولا النظريات الفيزيائية ، بل يناقش الطريقة التي تناول بها الفيزيائيون هذه الحقائق والنظريات لإثبات المقولات التي جاؤوا بها.

يحدد الكاتب منذ البداية تصوره النابع عن فكره الإسلامي فيقول " إنه يقبل من العلم الطبيعي جانبه الذي يقرر الحقائق بالمشاهدة أو بالأدلة العقلية القطعية ، كما يقبل نظرياته التي يغلب على الظن صحتها، بل يقبل ايضاً تفسيرات العلم للظواهر الكونية بظواهر اخرى ، دون ان يعدّ تلك التفسيرات نهائية لها" .

يتناول **الفصل الاول** موضوع الإلحاد في العصر الحديث، ويرجع بداية ظهوره إلى القرن الثامن عشر ميلادي، حين تسرب الإلحاد بالتدريج ليحل محل الإيمان عند قادة الفكر الغربي إلى أن شارف سدة الحكم فأصبح الدين الرسمي المعلن لبعض الدول بعد انتشار الشيوعية. وبالمقابل صار إظهار الاهتمام بالدين في الغرب أمراً مستغرباً ومنكراً في كثير من الأحوال .

وهكذا أصبح الإلحاد أحد مكونات مفهوم العلم ، ووضع الدين في زمرة السحر والشعوذة والاساطير.

ثم ينتقل الكاتب إلى مناقشة أسباب انتشار ظاهرة الإلحاد في عصرنا الحديث فيعزوها إلى خمسة عشر سبباً، من أهمها التناقض الذي حدث بين موروثات دعاوى الدين المسيحي وبين مكتشفات العلم التجريبي والقواعد المنهجية لكل منهما ، حيث يقوم المنهج الديني على التسليم المطلق في حين لا يقبل المنهج التجريبي إلا بما يتسم بالإتساق المنطقي القائم على الدليل الحسي أو العقلي.

كما ساعد على انتشار ظاهرة الإلحاد وضع القواعد الفكرية القائمة في حقيقتها على الإلحاد من قبل بعض المشاهير من المفكرين والفلاسفة مثل **كانت وديكارت**، وتبني الكثير لهذه القواعد في تأسيسهم للنزعة الإلحادية، مما آل بالغرب إلى فصل الدين في جهة والعلم الطبيعي في الجهة الأخرى، وكأنهما طرفا نقيض . فدأب الملحدون منهم بشكل دائم إلى الحديث عن ميزات المنهج العلمي وما قدمه للبشرية من مخترعات ومكتشفات، وكأنه لا يمكن لها أن تتحقق إلا بالإعتماد على العلم الطبيعي مع التخلي عن الدين ، موحين بذلك إلى أن التمسك بكليهما أمر في غاية التناقض .كما ألصقوا تهماً كثيرة وتناقضات عديدة مسّت أحياناً جوهر الدين وأصوله، كفكرة الألوهية نفسها، وألحقوا أسباب بعض الويلات التي أصابت البشر بالدين نفسه مثل الحروب والمظالم والمآسي.

استعرض المؤلف في **الفصل الثاني** أدلة وجود الخالق، وبخاصة الأدلة المتعلق منها بدلالة الكون على خالقه، وبين أنها ثلاث هي : البرهان الكوني ، ودلالة الآيات ، ودليل العناية . غير أن تركيزه انحصر على البرهان الكوني كأساس لمناقشة الفلاسفة والفيزيائيين لأنه استأثر بألبابهم عندما تعرضوا لمسألة وجود الخالق . ففي هذا الكون – مثلا – حوادث كمطر يهطل أو طفل يولد ، أو إنسان يهلك ، أو شجرة تثمر – الخ فمن الذي أوجد هذه الحوادث، ومن الذي يفنيها ؟ هل جاءت من العدم ؟ إن هذا بالعقل مستحيل حدوثه ! إذن لابد من سبب أحدثه . فإذا كان هذا السبب أيضاً حادثاً كالأسباب الطبيعية التي نشاهدها فإنه سيحتاج – كالحادث الأول إلى سبب وسيحتاج حادثه إلى سببه وهكذا .. ولكن هذا التسلسل في العلل والمعلومات مستحيل عقلاً ! إذن لابد أن يكون السبب الحقيقي للحوادث سبباً غير حادث، أي لابد أن يكون أزلياً ليس لوجوده إبتداء ولا يمكن أن يكون هذا السبب الأزلي غير الله .

ثم سيتعرض المؤلف الدلالة الثانية، وهي برهان الآيات فيستشهد ببعض الآيات التي خاطب بها سبحانه وتعالى الناس ليدل على وجوده وصفاته .

ذلك أن كل متأمل للمخلوقات يرى أنها ليست كماً عشوائياً من الموجودات، بل هي مرتبطة ومصممة بصورة تجزم على أن وراءها غاية تدل على أن صانعها كان عالما حكيماً . وبالتالي فإن حركة الخلق متسقة لا يعطل بعضها بعضاً . كما أن القوانين التي تحكم هذه الحركة هي واحدة لا تختلف باختلاف الزمان أو المكان .

وفي نهاية هذا الفصل لا يفوت على المؤلف التعرض لإشكالية هامة تفرض نفسها حين تحل العلوم الطبيعية محل الدين كما يريد لها الملحدون في هذا العصر، فيتساءل كيف يمكن تجاوز الفجوة الفطرية

الموجودة في حياة الناس والمتعلقة بالقيم الخلقية؟ ، إنهم في حاجة إلى قيم يهتدون بها في شؤون حياتهم، فإذا حلت العلوم الطبيعية محل الدين – كما يريد ذلك الملحدون – فأنّى يجد الناس تلك الهداية التي هي من ضرورات حياتهم ؟.

يناقش المؤلف في **الفصل الثالث** مسألة الفيزياء وأصل الكون فالسؤال : من أين أتى هذا الكون ؟ سؤال طبيعي مادام لكل شيء بداية ، فما هو رد الفيزيائي المعاصر على هذا السؤال الجوهري الذي لابد أن يواجه أي مشتغل بمجال العلوم الطبيعية .

ويقول المؤلف أن أقوال الملحدين من فلاسفة وعلماء طبيعة وغيرهم لاتخرج عن دعاوى. فقد زعم بعضهم أن الكون أزلي، أو أن مادته هي الأزلية، فأعطوها صفة من صفات الخالق . وزعم آخرون – بعد ثبوت حدوث الكون – أنه خلق من عدم، وزعم غيرهم أنه خلق نفسه . ثم يتناول المؤلف بمناقشة عقلية جادة هذه الدعاوى التي ألبست رداء العلم تارة ، ورداء العقل أخرى أو كليهما معاً تارة ثالثة .

ويستهل المؤلف هذه المناقشة المستفيضة بالسؤال الأساسي، هل في الفيزياء ما يدل على أزلية الكون ؟ ويقصد بالأزلي ما ليس لوجوده بداية وليس له بالتالي نهاية . فإذا صح أن شيئاً ما أزلي ، فلايمكن أن يكون مخلوقاً ، لأن المخلوق يقدم خالقه، فهو بالضرورة حادث أي أن لوجوده بداية ، فهل هذا الكون بعجائب مكوناته من كواكب ونجوم ومجرات وما بينها من أشياء كلها كانت منذ الأزل كما هي عليه الآن لم تتغير ولم تتبدل ؟ فماذا يعني الذين يقولون بأزلية الكون أو المادة؟ لقد كان ظنهم أن النجوم والكواكب التي يشهدونها أزلية، وبالتالي ستظل هكذا إلى الأبد، ومن ثم لا تحتاج إذن إلى خالق ، وهذا ما عناه الفلاسفة القدامى الذين قالوا بقدم هذه الأجرام السماوية . وإذا كانت هذه الأجرام الكبيرة ليست أزلية بل إن لها تاريخاً ولها بالضرورة نهاية، فما هو الازلي إذن ؟ هل هي العناصر التي تتكون منها هذه الاجسام ؟ لكن العلم في تطوره اكتشف أن هذه العناصر هي بدورها مركبة من ذرات فهل الأزلي إذن هو هذه الذرات ؟

لقد تبنى البعض منذ عصور اليونان القول بأن كل مافي الكون مكون من ذرات وكانوا يسمون الذرة الجزء الذي لا يتجزأ .

وفي عصر الفيزياء الكلاسيكية أعطى **نيوتن** تصوره للذرات صبغة علمية من حيث أن الله تعالى هو الذي خلقها وقدر كل ما يتعلق بها . وبالتالي فإنه حتى في فيزياء **نيوتن** لا يوجد ما يثبت أن الذرات المكونة للمادة أزلية، وإنما القول بأزليتها كان مجرد إفتراض محض لم يلبث تطور علم الفيزياء أن أبطله.

أما الفيزياء الحديثة فقد أثبتت أن الذرة مكونة أيضاً من أجزاء أخرى كالإليكترون والنيوترون والبروتون، وهذه المكونات نفسها مركبة من أجزاء أخرى، ما عرفه الفيزيائيون منها هو ما يسمى بالكوارك، وهكذا فقد أثبتت الفيزياء إذن أن المادة في شكل أجسام كبيرة، وفي شكل عناصر، وفي شكل جزيئات وذرات قابلة للفناء، بل أنها لتفنى فعلاً ، وبهذا فقد استدل على أنها لايمكن أن تكون أزلية . كما أثبت العلم أيضا أن هذه الأجزاء قابلة لأن تتحول إلى طاقة، وأن الطاقة نفسها قابلة لأن تتحول إلى مادة وهكذا، فما نسميه إذن مادة كالهيدروجين، وما نسميه طاقة كالضوء هي في الحقيقة وجهان لعملة واحدة، وبيّن **أينشتاين** في معادلته الشهيرة أن الطاقة تساوي الكتلة مضروبة في مربع سرعة الضوء . إذن فالمادة في كل شكل من أشكالها المعينة قابلة للفناء، فهي إذن حادثة وبالتالي تستحدث وتفنى .

لقد كانت نظرية الإنفجار الأعظم آخر إجابة للفيزياء الحديثة على سؤال حارت فيه عقول المفكرين والفلاسفة منذ القدم . ويتلخص مفهوم هذه النظرية بأنها تدل على أن لكوننا هذا بداية وأنه ليس كوناً أزلياً . أما الحقيقة التي جاءت نظرية الإنفجار الأعظم لتفسيرها هي أن كوننا هذا تتباعد مجراته بعضها عن بعض بصورة مستمرة إلا أن تباعدها من نوع آخر لا تتحرك فيه الأجرام تلك الحركة المعهودة بل إن الذي يتحرك متسعاً هو المكان الذي تحل فيه تلك الأجرام، وباتساعه يزداد البعد بين الأجرام الحالة فيه، وهم يمثلون ذلك بعلامات ترسمها على بالون ثم تنفخ فيه فكلما ازداد حجم البالون ازدادت المسافة بين تلك العلامات المرسومة من غير أن تكون هي قد تحركت وهكذا الحال بالنسبة للمجرات ، مع فارق واحد هو أن العلامة يزداد اتساعها باتساع البالون أما المجرات فلا يحدث في حجمها تغير بسبب هذا التباعد .

وتقود نظرية الإنفجار الأعظم العلماء إلى حقيقة تقول باختصار أنه إذا كان الكون اليوم يتباعد فلا بد أنه كان في يوم ما متقارباً ، وكلما اقتربت مكوناته وتضامّت كتلتها ازدادت شدة جاذبيتها ، وكلما ازدادت قوة الجاذبية ، إزداد التلاصق حتى تتلاشى الفراغات بين النجوم المكونة للمجرات ، وهكذا يستمر الضغط حتى تكون كل المادة المكونة للكون في حجم الذرة ، ثم يستمر الضغط، فيقل الحجم إلا ما لا نهاية له ، أي حتى يصير لا شي !

وبما أن الزمان والمكان تابعان للمادة فإن زوالها يعني أيضاً زوال الزمان والمكان المصاحب لها .

إذن عندما بدأ هذا الكون قبل ١٥ بليون سنة تقريباً كان حجم المادة قريباً من الصفر ، ثم انفجرت هذه المادة المضغوطة وتبددت أجزاؤها في صورة اشعاع ، ثم بدأ يبرد فتكّون منه بالتدريج كوننا هذا ، لهذا سميت النظرية بنظرية الانفجار الأعظم، غير أن هذا الانفجار أدى إلى تكوّن لا تبدد .

يستعرض المؤلف في **الفصل الرابع** تحت عنوان الإلحاد ونظرية الانفجار الأعظم كيف أبطلت نظرية الإنفجار الأعظم دعوتي أزلية المادة وطول المدة التي جعلت من الممكن أن تتكون منها – بمحض الصدفة – هذه الكائنات التي نشهدها، فألغت الحجتين الأساسيتين اللتين اعتمد عليهما الإلحاد الحديث، إذ أنها تقتضي أن هذا الكون بما في ذلك الزمان والمكان له بداية مطلقة ، فالمادة إذن ليست أزلية، بل حادثة فمن أين جاءت إذن ؟ إما أن يقال إن الله تعالى هو الذي خلقها ، أو يقال إنه لم يخلقها بل جاءت من العدم، أو يقال إنها هي التي خلقت نفسها .. وبكل من هذه المقولات أخذ بعض الفيزيائيين . فمنهم من استدل بها على وجود الخالق وقال إذا صحت النظريّة فلا مناص من القول بوجود الخالق . ومنهم من ضاق ذرعاً بالنظرية واعترف بأنها تقلقه لأن فكرة

الكون الذي ينفجر تعني أن للكون بداية. حتى **اينشتاين** كتب يقول " إن مسألة كون متمدد هذه تقلقني " .

وقال بعض الملحدين بل خلق الكون بغير خالق ، وآخرون رأوا أنه هو الذي خلق نفسه .. وهكذا . إلا أن الرفض المتعنت والإشمئزاز من الواقع لا يغير منه شيئاً، فهذه النظرية تتوالى الشواهد كل يوم لتدعم احتمال صدقها، وليس هناك من نظرية تدانيها في هذا، ولذلك أصبح المعارضون لها قلة شاذة في يومنا هذا .

ويرد الكاتب في **الفصل الخامس** على الإعتراضات والشبهات حول خلق الكون ووجود الخالق، فيستعرض مقولات بعض الفيزيائيين ممن قادوا الفكر الإلحادي الغربي، مثل **هيوم** ومن بعده **بول ديفز وجون باروا وستيفن هوكنج** ومن نحا نحوهم، ويعرض أهم المرتكزات والحجج في فكرهم ويدحضها إما بالتناقض الكامن في سياقها أو بمجانبة العقل والمنطق في التأسيس لها . فيرد على نقضهم وإنكارهم سببية وجود الكون أو أزليته ، أو على أن الدليل الكوني يقود إلى وجود الخالق، واعتراضهم على وجود الخالق سبحانه وتعالى، ورفضهم مفهوم قدرة الخالق، وما إلى ذلك من تهافت في الأفكار التي يطرحونها ، ويرد عليها الكاتب من خلال حوار ذكي يقوم على بداءة العقل ودلالاته القطعية.

ويستند المؤلف في تأسيس ردوده على إيمان راسخ بأن كل مخالفة لما جاء به الدين الحق مخالفة لمقتضيات العقل .

يتصدى الكاتب في القسم الثاني من الفصل الخامس لتبديد الشبهات التي طرحها بعض الملاحدة من الفيزيائيين كقولهم : هل يلزم بالضرورة أن تكون للمخلوقات بداية؟ وذلك لاعتقادهم بأن المؤمن بوجود الخالق يلزمه القول بأن المخلوقات كلها لها بداية وأنه لم يكن قبلها شي إلا الله سبحانه وتعالى. ولذلك أثار بعض الملحدين منذ القدم شبهاً حول هذا الإعتقاد، وتساءلوا كيف للخالق أن يظل منذ الأزل لا يخلق شيئاً حتى بداية خلقه لهذا الكون.

ويرد الكاتب باقتدار فكري منطقي على مجمل الشبهات التي عرضها الملحدون باتجاهاتهم الفكرية المتباينة ليصل إلى افتراض القائلين أنه إذا كان الدليل الكوني يؤدي إلى وجود خالق فلماذا يكون هذا الخالق هو الله وكرس المؤلف لهذا الافتراض الفصل السادس كله .

يقول المؤلف في **الفصل السادس** " أنه إذا قادنا الدليل العقلي إلى وجود خالق الكون فلا بد أن يكون الخالق الحق الذي تدركه الفطرة، ويدعو إلى عبادته رسل الله، أي أنه ذاته الذي تتحدث عنه النصوص الدينية " .

ثم يستخلص الكاتب صفات الخالق العظيم من عظمة خلقه، ومما تفضي إليه قدرته وهي :

– صفة الخالقية نفسها و صفة الأزلية ومن هاتين الصفتين يستنتج الكاتب عقلياً صفات أخرى، وصفات مستنتجة مرة أخرى من تلك الصفات المستنتجة، وهي صفة الأبدية لأن صفة الأزلية تستلزم صفة الأبدية الواردة في قوله تعالى " وهو الأول والآخر " .

وصفة الربوبية التي تدل على أن كل مافي الوجود حادثاً والله محدثه وهو حافظه، ومن هذه الصفة يستنتج صفة القيومية لأن الله القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، وصفة الأحدية لأن الخالق الأزلي الأبدي القيوم لابد وأن يكون واحداً في ذاته وصفاته.

ثم يجئ إلى صفة عظيمة الشأن هي صفة الإرادة، فالله هو المريد حيث يخلق بلا شروط وبدون أسباب، فهو إذن عالماً وهذه هي الصفة الأخرى ، لأن الإرادة تستلزم العلم، فكيف يريد من لا يعلم ؟ ومادام يعلم فهو إذن سميع بصير ولابد أن يكون حياً، وهنا تجيء صفة الحياة لانها من لوازم هذه الصفات . وهذا القدر من الصفات يكفي لبيان أن الخالق الذي دلنا العقل على وجوده هو الخالق الذي دعانا الشرع للايمان به وعبادته .

بعد ذلك ينهي المؤلف كتابه في **الفصل السابع** والأخير بتساؤل : ماذا بعد الإيمان بوجود الخالق ؟ فيفترض أن الفيزيائي الذي لم يكن مؤمناً بالله ، قد اهتدى بالحجج والبراهين التي ساقها الكتاب فأصبح صادقاً في إيمانه بوجود الخالق وبالصفات التي يتصف بها، فما عسى أن يتخذ بعد ذلك من موقف بعد هذا الإيمان !

يقول الكاتب أنه من هذا الإيمان سيبحث عن الهدي ! لابد أن يقول للفيزيائي عقله أن الهدى ـ عند بعض هؤلاء البشر ممن يؤمنون بالله ويعبدونه ـ عند بعض أصحاب هذه الأديان فيبدأ بالسؤال عن الأديان فيكتشف أنها نوعان :

نوع يزعم أهله أن لديهم هدياً من السماء، ولهذا فهي أديان سماوية وهي اليهودية والنصرانية والإسلام . ونوع لا يزعم أصحابه هذا الزعم ومنها البوذية والهندوسية . يستبعد الفيزيائي الأديان غير السماوية لأنه يبحث عن هدي سماوي، وهنا يبدأ بدراسة النصرانية . لأنها أقرب الأديان إلى مجتمعه فيبحث عن الكتاب المقدس فيجد أنه كتابان، وكل منهما يتكون من عدة كتب ورسائل لمؤلفين مختلفين كتبت بأزمان وأماكن مختلفة . الأول منهما المسمى بالعهد القديم وثانيهما المسمى العهد الجديد، واليهود يؤمنون بأولهما ولا يؤمنون بالثاني ، والنصارى يؤمنون بكليهما ولكنهم يركزون على الثاني . والعهد القديم يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد وهو بالعبرية ويكتنفه غموض كبير وقد غابت منه معان كثيرة لان معاني عدد هائل من الكلمات غير معروف أو غير يقيني . وينتقل للعهد الجديد ويتبين له أنها أربعة أناجيل فيتساءل الفيزيائي هل هذه الأناجيل هي ما نطق به المسيح فيتلقى الجواب بالنفي لان من كتبها كان ملهماً وكتب بعد حياة السيد المسيح بعقود ثم يكتشف بوضوح وجود بعض الاختلافات فيما احتوته هذه الأناجيل فيبحث عن هدي جديد يوصله إلى القرآن الكريم فيجده محكم لم يتغير ويكتشف فيه تفاصيل عبادته وفيه من الأوامر والنواهي ما يتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية والإقتصادية والتربوية وبصلات الأفراد والأمم والجماعات كما أنه المنهج الشامل للحياة وللحياة العملية .

لقد تناول الدكتور المؤلف **جعفر شيخ إدريس** في هذا الكتاب موضوعاً شائكاً ومعقداً وعقلياً صرفاً، وتصدى لعتاة العلم والفكر الغربي الملحد بإقتدار وتمكن واعتقد انه خرج من هذه العاصفة التي اختار أن يقتحمها واقفاً صامداً يستحق التقدير والاعجاب، ونسأل الله له التوفيق في كتابات قادمة في مثل هذه المواضيع الفلسفية المعاصرة وهو أهل وجدير بمثلها.